

إشكالية ازدواجية اللغة في الرواية وخطورة المصطلح بين التراث والحداثة

الباحث: بشير بن سعيد.

باحث: في تحليل الخطاب السردى الجزائري الحديث.

جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس.

مقدمة

إن اللغة تحيي بأهلها، تنمو وتتطور، ففي حياتهم حياة لها، وفي التخلي عنها وإهمالها موت لها، فحصر العربية إذن أمانة بين أهلها. أنظر أيها القارئ الكريم إلى التخلف الحضاري الذي وُسم به أهلها، كيف جعل العربي عاجزاً عن التعبير عن الاكتشافات الجديدة المستوردة؟، إذ لم يكن له خيار بأن يستوردها بمسميات أهلها مثل الكلمات التالية: ميكروفون، تلفزيون، تيليكموند، ريو، بورتابل، كاميرا، كومبيوتر، ستلايت، ميكروسكوب، والغريب في الأمر أن بعض المثقفين يعتقدون أن اللغة الأجنبية لغة أهل الحضارة والتقدم، الأمر الذي يجعلهم يلجأون إلى اختيار كلمات أجنبية يستعملونها وفي نيتهم أنهم يزيتون بها حديثهم، معتقدين علو شأنهم وسمو ثقافتهم بين الناس، وبعض الروائيين من إخواننا في الوطن العربي سلكوا هذا السبيل، فكان للمزوجة بين الفصحى والعامية حضور قوي في إنتاجهم الأدبي، والحقيقة أنه مرض لغوي خطير، أصاب الكثير من المثقفين وانتشر بسرعة مذهلة بين الطلبة في الجامعات، وتلاميذ المدارس والثانويات، في مجالات مختلفة من الحياة، ولم يتوقف الأمر عند اللغة الأجنبية، بل تعداه إلى استعمال ألفاظ عامية أكثرها سوقية، يتبناها أبنائنا في المقاهي وعلى الطرقات، يتراسلونها فيما بينهم مستعملين هواتفهم النقالة دون حياء، ومما زاد الأمر تعقيدا من انتشار هذا الداء في الأمة، هو إخواننا العاملون في مختلف محطات وسائل الإعلام الذين يستعملون كل الألفاظ الأجنبية والعامية الدارجة على ألسنة الناس، ظانين أنهم يحسنون صنعا، وإذا قمت بزيارات إلى الجامعات العربية ستنتابك الدهشة حيال الوضع الذي آلت إليه اللغة، إذ أن العلوم تُدرّس بلغات أجنبية، مما أثر سلبا على لغة الأم لدى الدارسين، ولوحظ فيها كثير من اللحن، فيا أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- كيف هانت لغة القرآن لدينا؟ وكيف أضحي اللحن فيها لا يعنينا؟

إن إشكالية ازدواجية اللغة من أهم المشكلات اللغوية التي تواجه الوطن العربي عامة. وعلى الرغم من الخطر المحدق بهذه اللغة التي انتقلت إليها العدوى من شتى اللغات في بقاع العالم، إلا أن العرب لم يدركوا بعد خطورة الوضع، فما سرّ ازدواجية اللغة؟ هل لها علاقة باللغة أم بالثقافة؟ هل ازدواجية اللغة ضرورة ملحة حتمتها ظروف العصر؟ أم هو حق للحاق بركب الحضارة، أريد به باطل؟ وماذا سيجنيه العرب بعد ضياع العربية الفصحى، إذا حلت محلها العامية؟

وكيف يمكن لهذا الداء أن يقتحم عالم الرواية؟ ومما لا شك فيه أن العدوى من هذا المرض ستنتقل - دون شك - إلى كافة الأجناس الأدبية الأخرى، وبما أن الرواية جنس وافد، فهذا يعني أن كثيرا من قضاياها النقدية وافدة أيضا، فلا ندري ما الذي تحمله بين طياتها، ثم هل الترجمة كانت صادقة في كل ما نقلته من نصوص من لغتها الأم إلى العربية؟ وهل يجد كاتب الرواية وسيلة أخرى غير اللغة يعبر بها عن أفعال شخوصه وأفكارهم ومحاوراتهم؟ وهل الكتابة بالعامية في الرواية تنفي بالغرض؟ ثم ما المعيار الذي به يختار الروائي مستويات اللغة التي يكتب بها؟ كيف يتعامل مع المصطلحات وهو يلج عالم الرواية؟

المصطلح

يخطئ كثير ممن جرفهم سيل الحداثة المسمومة؛ الذين يظنون أن انحصار المعارك بين العرب وأعدائهم يتمركز في ساح الوغى ولا يتعدى هذا الفضاء، غير أن الواقع أخطر من ذلك وأشد، ومن مآل اليوم يجهل حقيقة أعداء العرب، فإنهم لا يدعون بابا يُيسر عليهم النيل من العرب إلا ولجوه، ويظنون حياتهم كلها يترصون بنا الدوائر، ويسعون في ذلك بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية، بتزييف الحقائق، وطمس البصائر؛ حتى نرى الحق باطلا والباطل حقا، والنتيجة؛ ها هو العربي اليوم لا يتكلم إلا بلغتهم ولا يفكر إلا بتفكيرهم، فالمعركة اليوم أيها القارئ الكريم معركة مصطلحات؛ لا تخرج في ظاهرها عن كونها كلمات بسيطة، لكن باطنها يحمل سمًا قاتلا، لا يدركه العربي الذي صار الغرب قبلته، وملاذه، بهم يصول ويجول، وعندهم يتحدث بمعسول الكلام، ولا يحس بالألم حتى يستفحل الداء، عندئذ

لا ينفع الدّواء؛ ولتُعلم أخي القارئ أنّ علماء الغرب لهم القدرة على اللَّعب بالكلمات لقلب الموازين، فيختارون لكلّ كلمة حقّ مصطلحاً تنفر منه الأسباع وتسمّز منه النفوس، ويخترعون لكلّ كلمة باطل مصطلحاً تطرب له الأسباع وترتاح له النفوس، لتتعلّق به القلوب، فيألفها العربي ثمّ تراه يستعملها في حديثه وتأليفه مُزوّجاً لها ومدافعاً عنها، فتنتقل إلى مجتمعاتنا ما يعلّق بتلك المصطلحات من معانٍ لا تتناسب وثقافتنا، بما يجعلها تُعدُّ ممراً لبعض المفاهيم الفاسدة التي تتسلل في ثوب مزيف من أثواب الثقافة إلى لغتنا؛ إنّها "مصطلحات... أثّرت في تشكيل رؤيتنا وذواتنا، زاحمت كل شيء في خصوصياتنا... وتقاليدنا، وسهاتنا النفسية، والاجتماعية بشكل ظلت توجّه صيرورة مجتمعتنا، والويل لنا إذا امتدت إلى أجيالنا." (1)

أمّا في تراثنا العربي الزاخر بالعلوم "فقد كان المسلمون أمة المصطلح إبداعاً وتوليداً واشتقاقاً وبياناً، ووصفاً وتدقيقاً، وتأصيلاً وتقعيداً، بصورة مثّلت ريادة حضارية... وقد أكسبهم القرآن صنعة بيانه، ودقائق منهجه، وطرائق استدلاله، ولهذا اعترفت بفضلهم مختلف الثقافات واقتفت سبيلهم كثير من الحضارات." (2) وإنّ من أهم الطرق الموصلة إلى العلم "معرفة اصطلاحات أهله"، والمصطلح هو اللبنة الأولى من كل علم، وهو كائن ما كان إما واصف لعلم كان، أو ناقل لعلم كائن، أو مؤسس لعلم سيكون، وما القواعد والمناهج، ولا القضايا والإشكالات؛ إلّا آبار العلم، والمصطلحات دلاؤها... فلا سبيل إلى الماء بغير دلاء، (3) وفي هذا المجال صادفت في إحدى المجالات موضوعاً كان صاحبه دقيقاً في دراسته للمصطلح، والذي زاد الموضوع قيمة؛ أنّ الباحث كان يفكّك المصطلحات الوافدة، يحلّلها ويبرز دقائقها، لتبيان ظروف نشأة كل منها في بيئته الغربية، للتعرف على مضامينها وتوضيح أثرها على الهوية العربية، لكن عندما فتحت نقاشاً مع بعض الباحثين، فجئت بعدم الاهتمام لما يقال لهم، وصدق الشاعر إذ قال:

**لقد أسمعتم لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نارا ففخت أضاءت ولكن، أنت تنفخ في رماد**

إنّ هذا الأمر خطير وينبغي أن نهتمّ به أكثر، لأنّه بقدر غياب قضية المصطلح الوافد عن الوعي العربي الحاضر عند أهل الاختصاص، بقدر ضياع اللغة، هذا لون من ألوان مرض اللامبالاة الذي انتشر بقوة بين أهلها، إلّا أنّي استبشرت خيراً عندما تناولت مقالات للدكتور "موني" وهذا بعض ما جاء في إحداها: "قد لا يلتفت كثير من الدارسين إلى طبيعة "المصطلح" الذي يتعاملون معه حين المعالجة النظرية، أو التطبيقية؛ أي أنّ "هؤلاء لا يحسبون أي حساب لذلك وكأنهم ألفوا المصطلحات التي يستعملونها وخبروا دلالاتها"... بل إن كثيراً منها حين يُقلّب في وجوه استعماله يكشف عن حقائق خطيرة يجب التنبيه عليها،" (4) ومما لا شكّ فيه أنّ الدكتور "موني" يتصيّد كلّ ما لم ينتبه إليه الكثير من الباحثين، والدليل أننا: "إذا راجعنا كتابات بارث.. سنكتشف مقدار الزلل الذي وقعت فيه لغة النقد الحديث على أيدي هؤلاء، وكيف أنّها تشبعت بالهوس الجنسي الشاذ، وكيف فتحت باب "الاصطلاح" النقدي على مفردات الشذوذ والشواذ" (5). هذا الجنس الذي عبّرت عنه "أديث هاملتون" "بالوحش" في حديثها عن الشعب اليوناني لأتهم: "كانوا يخشون أن يستبقظ وحش الجنس". (6) وحقيق أن تختار له هذا "المصطلح" فهو اسم على مسمى، هذا الوحش الذي هتك الأعراض، ورمل النساء، ويثم الأبناء، وملأ السجون، وشئت أسراً بأكملها كانت تنعم بدفء المحبة، والسكينة، والاطمئنان. ونظراً لثقل المسؤولية على الأدباء والباحثين أصحاب الضائر الحية، تجاه الناشئة من الطلبة الذين لم يدركوا بعد حقيقة "المصطلح"، وخافة استفحال الداء في الأجيال القادمة فإنّه: "إذا لم توضّح لنا مشكلات البداية، لا نورث اللاحقين من بعدنا إلّا المشاكل" (7) هذا كلام صريح، قد ألبسه الدكتور "موني" ثوب الحذر الشديد، ممّا يدل على فطنته، ويبين أيضاً صعوبة فهم "المصطلح" فهماً يبعث على الارتياح حيال استعماله، لذا يتوجّب على الباحث التعقّق في دراسته من أجل فهمه تيسيراً للتعامل مع.

إنّ الطالب اليوم لا يستطيع أن يتبين بمفرده حقائق كثيرة في أمور الأدب... من مناهج ونظريات، وطرق، وأساليب، ومصطلحات، ونصوص أدبية، قد تبدو له في الوهلة الأولى أنه يستطيع فهمها، وكبح جماحها، والإمساك بتلابيبها، وسبر أغوارها، لكن، هيات، إذ لا يتأتّى ذلك إلّا لمن تسلّح بالعلم والمعرفة والدّربة لأنّ: "من النصوص التي تتمّ قراءتها اعتباراً ودون اختيار "تقذف محتوياتها" "دافئة" داخل فراغ القارئ أو الناقد... بهذه اللغة وبهذا المنطق تُنحت "المصطلحات"، وتحرّر نصوص النقد الأدبي، وتكتب النظريات التي ترددها في شغف من المحيط إلى الخليج، تنتشدّق بمتعة النص، ولذة النص... وغيرها من الكلمات التي لا تصدر في هذا النسق عن سوي جاد، يجتهد في مضمار الفكر والنقد. وإنما تصدر حتماً عن شاذ مريض، يريد تسويق شذوذه عن طريق نقد أقل ما يقال عنه أنه يُركم الأنوف

برائحة الماخور" (8) ثم يذكر صاحب هذا النص استنتاجا في غاية الأهمية: "إنّ هؤلاء الذين في يوم من الأيام وقّعوا على عارضة هتك الحياء (9) لا شكّ أيها القارئ، أنّه بذكائك ومطالعائك لا يخفى هذا الأمر عليك، لكنّ السؤال الذي يُلحّ عليّ توجيهه إليك: هل بقي عليك بعد الذي قرأت، وعلمت، أن تسرع إلى معاقبة الوافد، كيفما كان؟ وبعد ما ذكر الدكتور "مونسي" من أمر ما ذكر أراد أن يعزّز كلامه برأي لسيدة فقال: "لفت انتباهي... حديث أمّ في الإذاعة، وهي تتحدث عن الموضة التي يقتنيها كثير من المراهقين اليوم، من سراويل هابطة... وكتابات غريبة، وشارات وثنية/ كنسيّة.. حين قالت: أحسب أنّ هذا كلّ رسالة يريد مبحث والغرب، وشذاه، وشواذه، تمريرها إلى أبنائنا..." (10) إذن مثلا ترد الموضة من الغرب إلى الدول العربية، كذلك ترد المصطلحات التي تغلق بالذاكرة وإذا شبّ عليها أبنائنا، لا يحوها الزمن، فاقترّب أيها القارئ من أهل العلم للتواصل معهم، والاحتكاك بهم، فإنّهم لأهل الهدى لمن استهدى أدلاء، فهم الذين استطاعوا غربة النصوص الحديثة، فاكشفوا أخطاء ارتكبها دعاة الحداثة. أمّا إذا كان من أمر الوافد ما يحمل معارف، وعلوم مفيدة، لنستفيد منها، وتكون سراجا يضيء الطريق لأجيالنا، وقد يكون حقّا، حتى لا أقلل من قيمته، ولا أكون ممن ينكرونه جملة وتفصيلا، فإنّي فقط أريد أن أطرح السؤالين التاليين: كيف ينبغي التعامل مع "المصطلح" الوافد؟ وكيف نجعل الطالب اليوم يميل إلى دراسة التراث حبّا وفخرا واعتزازا؟ وقرأ معي أيها القارئ هذه الفائدة واجعلها قاعدة في سبيل طلبك للعلم لعلها تكون لك فاتحة لكل خير.... "الأسباب الموضوعية الجوهرية فترجع إلى اعتقادي الراسخ بضرورة استفادتنا من تجارب الغير، ومن التقدم الكبير الذي أحرزه الباحثون الأوروبيون في مجال الأدب واللغة"؛ هذه الاستفادة لن تكون صحيحة وسليمة وعميقة واعية، إلّا بعد دراسة تراثنا العربي القديم في الأدب والنقد وعلوم البلاغة المختلفة، حتى تقوم استفادتنا على أساس من المعرفة بنواحي تلك الاستفادة استكمالاً لما ينقصنا" (11) هذه حقيقة بإمضاء الدكتور "محمد مندور" نفتقدها عند كثير ممن سالت أعلامهم حبرا حديثا لا ينبوع له ولا مصبّ.

أمّا الحديث عن "المصطلح" متشعب، ويأخذ وقتنا طويلا، وزيادة على هذا، فإنّ مساحة المقال لا تسمح بذلك، لذا اكتفيت بمصطلحي "البطل والشخصية"، لأتناولهما والوقوف عليهما، فيما سيأتي.

مصطلحا البطل والشخصية:

من مطالعتي لما يكتب أساتذتنا الدكتور "مرتاض"، "مونسي"، "عبد الحفيظ بن جلّولي"، وغيرهم كثير، تناولت عدّة مقالات كان من بينها مقال تضمّن مصطلحي "البطل والشخصية"، هذا نصّه: "إنّا حين نراجع مصطلحي "البطل والشخصية" في الرواية والقصة والمسرحية والسليفا، نتناوبا الدهشة حيال الاستعمال أولا، وحيال المعاني التي يُراد ترميزها من خلال كل مصطلح... والنّاظر اليوم إلى كافة الدراسات النقدية، يجد هذين المصطلحين يتبادلان المواقع من غير تحقيق ولا تدقيق، وكأنّ الشخصية هي البطل، وأنّ البطل هو الشخصية... التي قد تتسع لتشمل الحيوان والجماد". ثمّ يبيّن أنّ "البطل" مهمّة وليس دورا"، وأنّ "الشخصية" "مصطلح" يغطي "الأدوار" التي تكون في القصة والفيلم والمسرحية، سواء اتّجه الدور اتّجاها إيجابيا فوافق الأعراف والقيم، أو سلبيا فخالفها وانتكح حرمتها. وليس للبطل في الدور إلّا أن يتجه الوجهة التي ترتضيها القيم... وتركيبها الأخلاق، إنه الأمر الذي يحدد للبطولة وظيفتها ومهمتها. وكل من حمل هذا النعت إنما يحمله من أجل أداء دور يتجه صوب الحق والفضيلة والخير. لأنّ البطولة في مفهومها العام لا تتجسد من خلال أفعال القوة...، وإنما تتجسد من خلال الخير والعدل، ودفع الشر والظلم، (12) لكنّ الدكتور "عبد الحفيظ بن جلّولي" يبدو مختلفا بعض الشيء مع الدكتور "مونسي" لأنّ البطل عنده: "روائيا غيره في الواقع، ليس في اختلاق الشخصية وترتيب المسار المختلف، ولكنّ في طبيعة البطل الروائي الذي هو ورنقيّ بامتياز، قد ينفلت للنّاص في لحظة من اللحظات ويرسم مساره الخاص، فبطل مقاييس العالم الواقعي التي نريد إسقاطها عليه"، (13) أمّا الدكتور "مرتاض" فيبدلي برأيه مبينا كيف تضاربت الأقوال بين الحداثيين والتقليديين وأصحاب مدرسة الرواية الجديدة موضحا أنّ: "الشخصية" عدّها التقليديون كلّ شيء في العمل السردية... ولكنّ لما جاء الحداثيون... ومنهم أصحاب "مدرسة الرواية الجديدة" إلى أطروحاتهم فحاولوا أن يحبطوها... قبلوا الموازين؛ فرفضوا هذه "الشخصية" جملة وتفصيلا، وذكر بعضا منهم من أمثال: رولان بارت، وتزفيتان طودوروف، وولفغانغ كيرسر، وواين بوث، وجان ريكاردو، وميشال زيرافا، وناطالي صاروط، وألان روب قري، وجيرار جينات، ورولان بورنوف، وميشال بيطور... ثمّ قال هناك من تمّدد إلى هذه الفكرة، من أمثال: جيمس جويس، وأندري جيد، وفرجينيا وولف، وفرانز كافكا... ويواصل قوله بأنّ الشخصية لديهم لا تعدو أن تكون كائنا لغويا، وورقيا، وأنها يجب أن تكون نسيا منسيا. ويرى الدكتور "مرتاض" أنّ ما ذهب إليه الحداثيون... وجهه إلى أبعد الحدود. (14) ثمّ يبدلي

برأيه هو قائلا: "الشخصية على ورقيتها في العمل السردى تمثل أهمية قصوى في هذا الجنس الأدبي،" (15) ... ويواصل حديثه أنه "لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها لم على الرواية العالمية عهد الاعتزاز والتشكيك في قيمة شخصياتها، وصدق تمثيلها لصور الحياة الاجتماعية؛ فكانت مرحلة وسطى تقع بين عهد "رواية الشخصية"، و"رواية اللاشخصية"، ثم بين أن هناك من شرع ينادي بضرورة إبطال دور هذه "الشخصية" في العمل الروائي، والعمل باللغة قبل كل شيء... ولا يتوقف الدكتور "مرتاض" عند هذا الحد، بل يذكر من ممد لهمد أركان "الشخصية" الروائية، والتشكيك في قيمتها الاجتماعية، طائفة من الكتاب العالميين، في فرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، أمثال: أندري جيد، وجيمس جويس، وفرجينيا وولف. (16)

إذن كما ترى أيها القارئ، كيف تضاربت الأقوال حول مصطلح "الشخصية" بين منادٍ لضرورة وجودها، وبين معارض. ثم يذكر الدكتور "مرتاض" ما أدلى به "مرسال بروسست" (M. Proust) باعتباره أنه كان يتذوق الأدب من حيثته (spatialité). (17) وهذا ما جعلني أتذكر فلما كنا نشاهده صغارا تحت عنوان "البيت الصغير بين المروج" (la petite maison dans la prairie) كان له أثر كبير في نفوسنا، لدرجة أنني ما زلت أتذكر تلك المشاهد التي رسمت ألوانها في أذهاننا، وتلك الشخصيات التي استطاعت بأدوارها التي لعبتها بصدق، أن تجعلنا ندوب في عالمهم، فعدا الفلم حقيقة، مما جعلني في كثير من المواقف، أبكي لحزنهم وأفرح لفرحهم. وهذا في الواقع لا يملكه إلا شخصيات عرفت السر في التمثيل، فأبكت وأسرت، فاستطاعت أن تحوّل الحلم إلى حقيقة.

وكتعليق لما جاء آنفا، فإنني لا أذكر شيئا جديدا من أمر "المصطلح"، بقدر ما أريد أن أذكر بشيء، وأتبه على آخر لطلما أشار إليه أساتذتنا، وإنني أحذر مما حذرنا منه مرارا، فما علينا إلا أن نتعمق في فهمنا له حتى يكون بإمكاننا فهمه لنهتدي إلى حسن التعامل معه، ولتعلم أخي القارئ أن كثيرا من النصوص كانت تتمتع على أهل العلم، باحثين ولوعن نافذة للولوج إلى بنياتها العميقة، فلم يستطيعوا معالجتها إلا بعد جهد، وعناء، ومشقة، و"المصطلح" نفسه قد أشكل أمره على الباحثين، مما جعلهم يفتحون على أنفسهم بابا واسعا للنقد، كل يعرض وجهة نظره بحسب فهمه "للمصطلح"، ونحن نكنّ لهم احتراما كبيرا، من غير أن ندخلهم إلى محكمة أدبية ننصر فيها لهذا، ونذمّ آخر، لأنه وبكل تأكيد، ليس من اختصاص أحد، ولقد كنا كثيرا ما نراهم يدخلون الحلبة بعناق يدلّ على المحبة، ويفترقون والبشر على محياهم، دلالة على سلامة صدورهم.

قد يتبادر إلى ذهنك أنني أريد أن أضع حاجزا بيننا وبين الحداثة، فأصارعك أيها القارئ أن الأمر على العكس تماما مما تعتقد، وإنني لا أقف ضدّ الحداثة أبدا، ولا أنكر الجهود التي بذلها أساتذتنا في "الترجمة الأدبية" التي "ستظل من القضايا المهمة في الحياة الثقافية العربية، لأنها ليست فقط مكان حوار، ولكنها محاولة لإدراك موقعنا من حركة التاريخ، (18) ولكن بالاستعانة بلغتنا التي تعدّ مفتاح العلوم على الإطلاق، والتور الذي يهتدي به في أحلك الظلمات.

اللغة

وبعد حديثي عن "المصطلح" أنتقل بك أيها القارئ الحبيب، وعلى جناح السرعة إلى أمر غال على العربي الغيور على عروبته، وأكثر أهمية، كان عليّ أن أبدأ به، وهو "اللغة العربية" التي عند "الجاحظ" كانت تميز كاتبها عن كاتب وتعلو بمبدع عن آخر، بهذه الكلمات أراد الدكتور "مرتاض" أن يمهّد لنص لـ "الجاحظ" في روعة الفن وصدق البيان، هذا كلامه: ... متى كان اللفظ كريما في نفسه، متخيلا في جنسه... سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حُبب إلى النفوس، واتّصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشتت إليه الأسعاع، وارتاحت له العقول، وخفّ على ألسن الرواة، وشاع في الناس ذكره، وعظم... خطؤه" (19) هذه "لغة" التراث، في أبهى صورها، وأرقى أساليبها، فإن وُجد في الحداثة ما يشبهها، فمن هذا المعين، ولا ينبغي أن يجحد ذلك جاحد. وإلى جانب ما ذكرت من أمر "اللغة" فإن "تمام حسان" أدرك خطورتها فقال: إنها سلاح من أقوى الأسلحة نفسيا، واجتماعيا، وسياسيا، واقتصاديا، وأديبا، للسيطرة على الأفكار، (20) وهي اللغة التي أدرك المستعمر خطورتها أثناء الاحتلال، وحين تبين له ذلك، أسرع إلى محاربتها بشتى الوسائل، وإلى يوم الناس هذا، "فغرسوا في نفوسنا أول ما غرسوا، احتقار "اللغة العربية" فكان من ذلك أن "أفقدونا ثقتنا بأنفسنا، وبتاريخنا، ومستقبلنا". (21) وصار العربي كالريشة في مهبّ الريح، ذابت شخصيته وانحلت أخلاقه، حتى صار الطالب في الجامعة يستحي إذا تحدّث بلغته، وكأنّ المجتمع لا يعي بما يحدث من حوله في الوطن العربي... ولا أظنّ أنه يمكن أن يوجد مجتمع دون "لغة"، لأنها إحدى الثوابت الأساسية لقيامه، وعليها تقوم حياته، فلا يمكن لأيّ مّا، ومهما يكن أن ينسلخ عن أصله. وهنا يتضح الطابع الاجتماعي "للغة"...

فلا وجود إذن لنظام لغوي منفصل عن الجماعة لأنه ضروري في تعاملها به، فكيف نجهل لغة بفضلها استطلع أهلها ومن غير أهلها من أجادوها، وتضلّعوا فيها، أن يبلغوا الآفاق... وكلُّ تقدّم اجتماعي كُتب له الكمال إنما تمّ لوجود اللغة⁽²²⁾ التي تُعدّ رابطة تاريخية تربط بين الأجيال... ووعاء التجارب الشعبية، والعادات، والتقاليد، والعقائد.⁽²³⁾ والحديث عنها يعني الحديث عن الشخصية العربية، عن الهوية العربية المتجذرة في أعماق التاريخ، فلا مساس بهويتنا، ولنرفع أيدينا عن ظلم لغتنا، ولنعلم أنّ الغرب يعلنون شأن لغتنا بين لغات العالم، ويحتقرون من يتنكّر لأصله وإذا: "كانت غاية بعض الروائيين العرب هي إذابة "اللغة" بتسويد وجهها... وإهانتها بأن جعلوا العامية صرة لها"... فالنتيجة عندئذٍ، "لم يبق "للغة" العربية إلا أن تضيّ هائلة... في الأرض..."⁽²⁴⁾ باحثة على من يعرفون قمتها فيحبونها ويقدرونها، ويُعلّون شأنها ويكرمونها، فإنّ هؤلاء حقاً هم الذين تهب لهم نفسها، فلن ترضى بغيرهم أهلاً لها، والسبب في هذا أنّ هناك من خدعهم بهرج الحداثة فتعاملوا معها "كقايض على الماء خاتته فروج الأصابع" من أمثال "سلامة موسى" الذي تأثر بعدد من علماء الغرب، حين سافر إلى فرنسا ومكث فيها ثلاث سنوات قضاها في التعرف على الفلاسفة والمفكرين الغربيين، انتقل بعدها إلى "إنجلترا" مدة أربع سنوات، أهمل الدراسة وانصرف عنها إلى القراءة، فقرأ للكثير من عمالقة مفكري وأدباء الغرب أمثال: ماركس، وفولتير، وبرنارد شو، وتشارلز داروين، وقد تأثر تأثراً كبيراً بنظرية⁽²⁵⁾ التطور أو النشوء والارتقاء، ثم أراد هو أيضاً أن يدلي بدلوه واضعاً يده على اللغة العربية، ومن يدري لعلّه كان يريد تطويرها متأثراً بخلفيته الغربية أو كان على موعد معها لتغييرها...، لذا يقول الدكتور "عبد الصبور شاهين" أنّ "سلامة موسى": مرّ من هنا مع أشياءه فما أجدت مجهودهم للنيل من لغة القرآن، لغة وكتابة".⁽²⁶⁾ هؤلاء وأمثالهم ممن رضوا حلياً عربياً سائفاً من صدور أمهاتهم، حتى إذا استوتوا، فإذا هم إلى وحل الحداثة ينظرون، فتحو أعينهم على نصوصها، فإذا هي بيضاء للمنخدعين، غير أنّ وراء البياض سواد لا يكاد يُرى، فلما زال البياض، وظهر السواد، ولّوا إلى ذويهم منخدلين، وفي مقابل هذا، أمسك بها آخرون في قبضة المتبصرين الحذرين، فأحسنوا الاستماع إليها، ثم قاموا بغربلتها، لتسليمها إلى الأجيال بعدهم صافية من الشوائب، خالية من الدسائس التي قد لا يتفطن إليها الكثير ممن جُبلوا على محبة الوافد، الذي تتوقّع وقوي حضوره في شتّى مجالات الحياة، وقد كان للرواية الحظ الأوفر منه، من بينات مختلفة وبلغات أجنبية متعدّدة، فأين مكان الروائي العربي من هذا الصراخ؟ وكيف يمكن أن يتصدّى له؟ ما اللغة التي ينبغي عليه أن يكتب بها إنتاجه الروائي؟

لغة الرواية:

وكثيراً ما كت أطلع كتباً، وأقرأ نصوصاً أعرف أصحابها من خلال أساليبهم، ممّا يدلّ ذلك على أنّ الكاتب يتخيّر الألفاظ التي يفضلها عن غيرها لقوّتها في الدلالة، ولشدّة تأثيرها في المتلقي ممّا يراها مناسبة، ليضعها في المكان الأنسب، مستعملاً الأساليب التي يميل إليها حيث تظّل معه في العديد من إنجازاته، حتى يُعرف بها، ويرسم المشاهد بريشة الفنان الذي يصنع من الخيال — بما تجود به سرحاته — عالماً واقعياً يحار — في إبداعه — ذو والألباب. وليس كل من يحسن القراءة يستطيع كتابة الرواية، فهي جنس أدبي يقوم على براعة الفنان الذي يعرف "لغته" جيداً وله القدرة على اللعب بالألفاظ، واللغة: "وعاء يصب فيه السارد أفكاره... ويرسم رؤيته في صورة محسوسة، بمفردات وتراكيب... وأساليب إيجائية، قد تكون انزياحية أو رمزية... فإذا امتلك الروائي ناصيتها، سبقت له وأطاعت فيحسن توظيف مفرداتها، وتراكيبها، وتوظيفاً أدبياً سامياً في سياقات تواصلية وتداولية، ذات أغراض فنية، وتعبيرية، في قِمة البلاغة وروعة الفن"،⁽²⁷⁾ واللغة في الرواية تكون: "هي أهم ما ينهض عليه بناؤها، ولما كانت الرواية جنساً أدبياً فقد كان مُنتظراً منها أن تصنع اللغة الأدبية التي تجعلها تعزّي إلى الأجناس الأدبية بامتياز"،⁽²⁸⁾ تلك هي اللغة الإبداعية التي تكون مع حسن السبك الذي يمتاز به الكاتب، واستعمال ذكائه في حسن اختيار الألفاظ التي تعينه على توليد المعاني الراقية، التي تجعل المشهد يتحرك أمام القارئ حركة عجيبة، تكاد تخطف عقله بروعة البيان. وكما قد أشرت قبل قليل من أمر "اللغة" في علاقتها بالجنس الأدبي، وما أشار إليه الدكتور "عبد الرحمان حمدان" فهذا "ميخائيل باختين" (Mikhail Bakhtine) يضيف في حديثه عن الرواية بأن "جعلها الجنس الأدبي الأكثر تعبيراً عن التنوع الاجتماعي للغات".⁽²⁹⁾ وهذا الرأي لا يختلف فيه التراثي ولا الحديثي، ما دام الأدب مرآة للمجتمع، وإنّه "لما نزلت إلى الأرض رسالة السماء... كانت العربية أداة الرسالة، بها نزل القرآن فانقلبت من لهجات مفرّقة إلى صيغة كلامية ودلالية موحّدة، وأصبحت لسان الدّين والحياة".⁽³⁰⁾ فما أسعدنا نحن العرب بهذا الإرث العظيم وبالفخرنا وفخر "اللغة العربية" أن جعل الله — لها القرآن الكريم الذي نزل بها — وساماً يرفع شأنها بين سائر اللغات. فما على الطالب اليوم إلا أن تكون له رغبة أكيدة في الميل الشديد إلى تعلّم

لغته، ولا ينبغي أن تكون بعض دروس النحو والصرف حاجزا بينه وبين تعلم لغته، وهنا يقول الدكتور "شاهين": "ما أكثر ما يُستحق إعادة النظر في مجال النحو والصرف، مما يبغضها إلى الناشئة، ويغرس في أنفسها مشاعر اللامبالاة بدرسها"،⁽³¹⁾ وإني ما أرى رأيه هذا إلا دعوة إلى ضرورة الإسراع إلى إيجاد منهج جديد للتدريس، وما أراه إلا محذرا من أمر خطير قد يحدث، يتعلق بهذين العلمين فيقول: "قبل أن تلقى بها هذه اللامبالاة في زوايا الإهمال"⁽³²⁾ والدكتور "شاهين" واحد من أولئك الذين أحسوا بثقل المسؤولية، بما حباهم الله من العلم، تجاه أبناء هذه الأمة، ولم يكن حملهم لها اعتباطا، بل بفعل فاعل، فراحوا ينظرون ويدققون في مسائل ذات أهمية كبرى، تهتم الناشئة لها فوائد جمّة على المجتمع، فإذا فهمنا ما يقصده الدكتور "شاهين"، وإذا حضيت اللغة بالمكانة التي تليق بها عنده، فستكون مثلاً يراها الدكتور "مرتاض" في قوله: "يجب أن تكون اللغة... رفيعة القدر، كريمة المكانة... لدى كلّ أمة، لأنها هي مضطرب تاريخها وحضارتها، يجب أن نغير أهمية اللغة للإبداع... على أساس أنها هي مادة هذا الإبداع وجماله... فلا خيال إلا باللغة، و... لا حب... ولا حضارة... إلا باللغة..."⁽³³⁾ إنه يدعو إلى ضرورة الإهتمام "بها، ولابد أن يكون البحث فيها على رأس قائمة كلّ البحوث العلمية، نظرا للمكانة التي تحظى بها، لذا رأيته يتعجب أشدّ العجب من أولئك الذين يعالجون مواضيع، تبدو لديه أقلّ شأنًا من ضرورة الإهتمام بها، وبعد أن جاد برأيه واجتهد في إظهار قيمتها، طرح السؤال التالي: "هل بعد كلّ هذا يمكن أن نكتب أدبا، أو نقرأه خارج إطار اللغة؟"⁽³⁴⁾ هذا إهتمام كبير تحظى به "اللغة" عند الدكتور "مرتاض"، وسيبدو لك أيها القارئ أكثر إهتماما في حديثه عن مستوياتها.

مستويات اللغة

ومثلاً تحدّث الدكتور "مرتاض" عن "اللغة"، فلقد كانت له أيضا وقفة طويلة مع مستوياتها، حيث يرى أنّ مسألة مستوياتها في العمل السردي تعني... أنّ الكاتب عليه أن يستعمل جملة من المستويات التي تناسب أوضاع الشخصيات الثقافية، والاجتماعية، والفكرية. ثم يذكر بعضا منها كالأستاذ، والفلاح، والطبيب... وينصح الكاتب عندئذ أن يجعل لكلّ شخصية لغة يسهل عليها فهمها، ويلجّ على أن تكون في إطار الفصحى، محذرا ومتعجبا مما لجأ إليه الروائيون العرب في استعمالهم العامية دون تحفظ، وفي هذا الصدد يقول: "لقد كما نعجب كيف كان الكتاب الكبار يأذنون لأنفسهم بالسقوط والتدنّي من مستوى الفصحى البسيطة التي يفهمها جميع القراء في العالم العربي، وكيف كانوا يستنهيون إلى تلك العامية المحلية التي لا يفهمها إلا الشعب الذي يتحدثها أصلاً".⁽³⁵⁾ ثم يطرح السؤال التالي: "أم لم يكن أولئك الكتاب يفكرون في قرائهم في الوطن العربي؟"⁽³⁶⁾ وفي هذه الظاهرة يرى أن لا تكون...عامية ملحونة أو سوقية هزيلة... بل يدعو إلى تنبّي على أقلّ تقدير "لغة" شعرية ليست كالشعر، موحية، ومكثفة، ومفهومة، "ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ثم يقول: "إنّ الكاتب لا يستطيع أن يعرف المستويات الثقافية لكل متلقّيه... عليه أن يتخذ... طريقا يسلكه... بالتزام الوسط"،⁽³⁷⁾ وأضّم صوتي إلى صوته، لأنّي ما رأيته إلا أحمده نفسه في حديث طويل عن "اللغة"، ومستوياتها، وإني لم أكتب كلّ ما ذكره في هذا المجال في مؤلّفه "في نظرية الرواية"، ولو فعلت لجعلته بين هذه الصفحات يصرخ مناديا بأعلى صوته، أيها أهل اللغة، يا أهل الفصحى، يا أهل لغة القرآن، هذه حرمتكم، هذا عرضكم، هذه أصالتكم، هذه شخصيتكم، هذا كيانكم، هذا تاريخكم، حضارتكم، ألا من يغار على عرضه؟ ألا من يدافع عن تاريخه؟ أهذه هي نخوة العربي؟ أم هوداء استفحل في الأمة، يئست من البرء منه فطرحته فراشا تنتظر الموت، لكنني لا أعتقد البتّة أن الأمة التي وصفها الله بالخيرية أن تكون نهايتها بهذه السهولة، وبهذه المهزلة، ما دام لها رجال يسهرون على سلامة الأمة ولغتها، من أمثال من ذكرت في هذا المقال، والقائمة طويلة.

خاتمة

وختاماً لهذا المقال أودّ ذكر عبارة في صلب الموضوع لأعلق عليها؛ ليأ لها علاقة مباشرة بموضوع المقال، وهي لصاحبها "بوجه صلاح الدين" الذي يقول: "إن المادة اللغوية تمكّن من بناء عالم روائي يحيل على ذاته، سعيا وراء تمثيل واقع لغوي محض. هو واقع لغتنا التي نهوى ونعشق، هذه التي تسكننا ألما جميلا ونسقا حلالا يروي كرمه غدا، غوصا في تربة ماضينا"⁽³⁸⁾ وما يسعني الآن إلا أن أقول لك أيها القارئ: ليس العيب في ازدواجية اللغة، لأنّ ديننا الحنيف يأمرنا بهذا، والدليل قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (من تعلّم لغة قوم أمن شرهم)، إنّما العيب يظهر جليا في استعمال مصطلحات يجمل الباحث مفهومها، ممّا يجعلنا نظلم الأدب ونسيء إليه، وليس عيبا أن يستعمل الباحث ألفاظا عامية أقرب إلى الفصحى في بعض المواقف التي تستدعيها

الضرورة، بل العيب في استعمال ما يخدش الحياء، وما ليس من لغتنا ولا تراثنا الذين أثنى عليها علماء الغرب أيما ثناء، يتعجب له القارئ فيدرك من خلاله قيمة لغتنا، وكوز إرث أمتنا بشهادة غيرنا، والحق كما قيل — ما شهدت به الأعداء، هنا تكمن الحقيقة التي ينبغي أن لا يجهلها أو يتجاهلها الباحث، وهي ضرورة ربط العلاقة بين التراث والحداثة، فيما يخدمها معا إيجابيا، دون الإساءة إلى لغتنا، وأصالتنا وتاريخنا، وتراثنا، حتى يتسنى للطلبة والباحثين اليوم، السير في خطين متوازيين يليقان بالتراث، ولا يسيئان إلى الحداثة أو يقللان من شأنها.

الهوامش:

- 1- هيثم زعفان، المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوية الإسلامية، ط.1 مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة 1430 هـ- 2009م، ص 149.
- 2- هيثم زعفان، المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوية الإسلامية، ط.1 مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، 1430 هـ- 2009.
- 3- فريد الأنصاري، المصطلح الأصولي عند الشاطبي، ط.1، معهد الدراسات المصطلحية، 1424 هـ- 2004، ص 11.
- 4- حبيب مونسي، هؤلاء الشواذ الذين يصنعون المصطلح النقدي ج2 مع رولان بارت، 2012/1433
- 5- حبيب مونسي، هؤلاء الشواذ الذين يصنعون المصطلح النقدي ج2 مع رولان بارت، 2012/1433
- 6- أدبث هاملتون، الأسلوب الروماني، في الأدب والفن والحياة، مكتبة الأسد، تر: حنا عبود، دمشق، 1997، ص 7.
- 7- حبيب مونسي أولئك الشواذ من علماء الغرب. د.ص.
- 8- حبيب مونسي، هؤلاء الشواذ الذين يصنعون المصطلح النقدي، ج2 مع رولان بارت، 2012/1433
- 9- حبيب مونسي، هؤلاء الشواذ الذين يصنعون المصطلح النقدي، 2012/1433
- 10- حبيب مونسي، هؤلاء الشواذ الذين يصنعون المصطلح النقدي ج2 مع رولان بارت، 2012/1433
- 11- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، منهج البحث في الأدب واللغة، دار نهضة مصر، 1996، ص 3.
- 12- حبيب مونسي البطل أم الشخصية لماذا تخلت الرواية عن البطل لصالح الشخصية؟ ج. 1، 2012/1433
- 13- عبد الحفيظ بن جلولي، الشخصية والبطل، فرق أم فرع؟ 2012
- 14- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 90.
- 15- نفسه ص 90.
- 16- نفسه ص 92.
- 17- عبد الملك مرتاض، المرجع السابق، ص 133.
- 18- ب. برونل وآخرون، النقد الأدبي، مكتبة الأسرة، تر. هدى وصفى، القاهرة، 1989، ص 7.
- 19- عبد الك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 110.
- 20- تمام حسان، المرجع السابق، ص 3.
- 21- تمام حسان، المرجع السابق، ص 3.
- 22- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 1.
- 23- نفسه، ص 1.
- 24- نظر عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع. 240، الكويت 1998 ص 106.
- 25- <http://www.goodreads.com/author/show/2830962>
- 26- عبد الصابور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400 هـ - 1980م، ص.
- 27- ينظر المرجع نفسه، ص 104.
- 28- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع. 240، الكويت، 1998 ص 10.
- 29- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، دار الأمان، الرباط، تر: محمد بورادة، 1987، ص 60.
- 30- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 5.
- 31- عبد "الصابور شاهين"، المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400 هـ - 1980، ص 8.
- 32- نفسه ص 8.
- 33- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنية الرواية، ع. 204، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998، الكويت، ص 104.
- 34 - نفسه، ص 104.

35- المرجع السابق، ص. 103

36- نفسه ص 103

37 - نفسه، ص 109

38 - بوجاه صلاح الدين، مقالة في الرواية، المؤسسة الجامعية لدراسات النشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص 131.